﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾

[العنكبوت: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

امتنانُ اللهِ على نوحٍ ومن معه بالنّجاة بعد إغراقِ الكافرين المكذّبين من قومه

بعد أنْ بيّن سبحانه سوءَ عاقبةِ المكذّبين مِنْ قوم نوحٍ ﷺ بالإغراق الّذي لم يغادرْ منهم أحدًا؛ لاستمرارهم على الظّلم والكفرِ بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]، أعقبَ ذلكَ ببيانِ حُسْنِ عاقبةِ نوحٍ ﷺ ومَنْ آمنَ معه؛ فقد صَدَقَه اللّهُ وَعْدَه، ونصرَ عباده فقال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾: (نجو) أصلان يدلُّ أحدُهُما عَلَى كشطٍ وَكَشفٍ، والآخَرُ عَلَى سَتْرٍ وَإِخْفاءٍ[2]، والنَّجاء: الذّهابُ والانكشافُ من المكان، وقيل أصله: الانفصالُ من الشّيء، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكانُ المُرتفِع المنفصل بارتفاعه عمّا حوله، وسُمّي كذلك لكونه ناجيًا من السَّيْل[3]، والنَّجْوةُ: هي الارْتِفاعُ مِن الهَلاكِ، والنَّجاةُ الخَلاصُ ممّا فيهِ المخافَةُ، ونَظيرُها السَّلامَةُ[4]، يُقال: نجا الشّخصُ من الشّرِّ: سَلِمَ وخَلَص من أذاه[5]، ونجّاه اللّهُ تعالى: سلّمه من الشّرّ، ومعنى ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ في الآية: خلّصناه، أي: خلّصنا نوحًا من العذاب الّذي نزلَ بقومه وهو الغرق.

2) ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾: (سفن) أصلٌ يدلّ على تنحيةِ شيءٍ عن وجهِ

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 21.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجو).
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نجو).

شيء، ونحتِ ظاهرِ الشّيء، كالقِشْر، وسُمّيتِ السّفينة بذلك؛ لأنّها تَسْفِنُ الماءَ كأنّها تَقْشِرُهُ[1]، أي: تغوصُ فيه وتزيحهُ حين جَرْيها، أو لأنّها خشبٌ نُحِتَ وصُنِعَ[2]، والسّفينة: الفُلْكُ والمركبُ لنقلِ النّاس أو البضائع في البحر أو النهر[3]، والمراد بالسّفينة في الآية هي الفُلْكُ الّتي صنعها نوحٌ عليه السلام.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا تبديلَ لسنّته سبحانه في نُصرةِ دينه

المعنى الإجماليّ للآية الكريمة الّتي تبيّن إنجاءَ الله لنوحٍ عليه السلام ومَن آمنَ معه من الطّوفانِ هو: أنجَيْنا بعظمتنا نوحًا ومَنْ حمَلَهم معه في السّفينة مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ، وجعَلْنا بعظمتنا هذه الحادثة المشتملةَ على الإغراق والإنجاء، وهذه السّفينة عِبرةً للعالَمينَ، وحُجَّةً عليهم، وعلامةً على قُدرةِ اللّهِ وعِلمِه، وإنجائِه للطّائِعِ، وإهلاكِه للعاصي[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في قوله ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

سُرعةُ إنجاءِ اللهِ تعالى لرسله والمؤمنين تطمينٌ وتثبيتٌ لهم

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: 14] وهي تفيدُ التَّعقيبَ، بما يدلُّ على إثباتِ كمالِ قدرة اللّهِ، أي: إنّ إنجاءَ الطّائِعِ جاء عَقِبَ تعذيبِ العاصي بالإغراقِ والإهلاك، كما تفيدُ السُّرعة في هذا الإنجاء، وفي هذا إيماءٌ إلى أنّ اللّهَ مُنْجي المؤمنين ممّا يلاقونه من عذاب[5]، وهذا تسليةٌ لِرَسولِه ﷺ ولمن آمنَ معه، وتثبيتٌ لهم، وتهديدٌ لِقُريش[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سفن).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفن).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (سفن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 18.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 222.
(6) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 403.

الغرض من التّعبير بالجملة الخبريّة:

في الإخبار بأنّ الله سبحانه مُنْجي أوليائِه اتّعاظٌ واعتبارٌ

الجملتان ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ و﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ في الآية من نوعِ الكلام الخبريّ الابتدائيّ؛ لخلوّهما مِنْ أدواتِ التّوكيد، وفائدةُ الخبرِ فيهما هو إفادةُ المخاطَب الحُكْمَ الّذي تضمّنَتْه الآية، وهو إنجاءُ الله لنوحٍ ﷺ ومن ركبَ معه في السّفينة، وجَعْلُ هذه الحادثةِ عبرةً للعالمين، وغرضُ هذا الخبر الاتّعاظ والاعتبار بأنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ سيكون آخِرَ أمرِه الهلاكُ، وأنَّ المؤمنينَ سيَجعَلُ اللّهُ لهم مِن كُلِّ هَمٍّ فرَجًا، ومِن كُلِّ ضيقٍ مَخرَجًا[1]، وأنّ هذه القصّة واللّاتي بعدها شواهدُ على ذلك[2]، وهذا ليَمْتَنِعوا عَنْ تكذيبِ الرّسلِ والعِنادِ مَعَهم.

نكتة التّعبير بـ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ مادةً وصيغةً:

مِنِ امْتنان الله على نوحٍ ومَنْ معه تخليصُهم مِنَ الغرق دونَ الوقوع فيه

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبير بالفعل ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ دون غيره كـ(خلّصناه) مثلًا؛ لاتّساع دلالة لفظ الإنجاء ومناسبته للسّياق؛ إذ أصلُ مادّته: الذّهابُ والانكشاف من المكان، أو الانفصال من الشّيء[3]، ومن معانيه الارْتِفاعُ مِن الهَلاكِ، وذلك بنفاذه إلى مرتفعٍ من بين ما يحيط به أو يجاوره فلا يُخْلَصُ إليه بأذى، ومن معانيه أيضًا الخَلاصُ والإنقاذ ممّا فيهِ المَخافَة، كخطرٍ محدقٍ أو عذابٍ أو غرق أو كربٍ، والسَّلامَة من الأذى والشّرّ[4]، كما أنّ إيثار التّعبير بـ(أنجينا) دون (نجّينا)؛ لأنّ الإنجاء يختصُّ بأنّه الخلاصُ قبل الوقوع في المهْلَكة، بينما التّنجية تختصُّ بأنّها الخلاصُ بعد الوقوع فيها[5]، وكلّ هذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الّذي هو الامتنانُ على

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 222.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نجو).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نجو).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 77.

نوحٍ ﷺ ومن معه بتخليصِهم وإنقاذِهم من خطرٍ محدقٍ بهم؛ وهو الغرق، وذلك بارتفاعهم من الهلاك؛ بأنْ بقيتِ السّفينة مرتفعةً على وجهِ الماء، إلى أنْ رَسَتْ على الجوديّ، وقد سلّمهم الله من الأذى والشّرّ دون أنْ يقعوا في الغرق مع الكافرين.

وقد آثَرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ فعل الإنجاء ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ للدّلالة على تحقّقِ وقوعِ الإنجاءِ، وأنّه أمرٌ وَقَعَ وانقَضَى؛ باعتبارِ أنّ الّذي يقصّ القصّة، وينقلُ الوقائع إنّما هو القرآن، حيث يقصُّ أحداثها الّتي مضتْ وانقضتْ.

سِرّ إسناد الفعل إلى ضمير التّعظيم:

في تفخيمِ الإنجاءِ الّذي أوتيه نوحٌ ومن معه تسليةٌ للنّبيّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أُسند الفعل إلى ضميرِ التّعظيم؛ للتّنبيهِ على تربيةِ المهابةِ تجاهَ المنْجي ﷺ وعلى تَفْخيمِ ذلك الإنجاءِ الّذي أكرمَ اللّهُ به نوحًا ومن رَكِبَ معه في السّفينة، وعلى أنّه إنجاءٌ مؤكّدٌ بعظمةِ اللّهِ سبحانه وفي تفخيم هذا الإنجاء تسليَةٌ للنّبيّ ﷺ بأنّ المؤمنينَ سيَجعَلُ اللّهُ لهم مِن كُلِّ هَمٍّ فرَجًا، ومِن كُلِّ ضيقٍ مَخرَجًا.

سِرّ إفراد نوح بضمير خاص في حالة الإنجاء:

في إرجاع الضمير إلى نوحٍ واختصاصه بالإنجاء مزيدُ اهتمامٍ به وتشريفٌ له

ضميرُ الهاء في ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ يعودُ إلى نوحٍ ﷺ[1] وفي إفراد نوح بضمير راجع إليه في اختصاصه بالإنجاء مع أنه داخلٌ مع أصحاب السّفينة مزيدُ اهتمامٍ به وتشريفٌ له ﷺ.

دلالةُ العطف في قوله ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾:

الواو تفيد الجمع والاشتراك في المعنى؛ وتفيدُ معه الاتّحاد في الزمن بين المعطوف: (أصحاب السّفينة)، والمعطوف عليه:

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 11/ 490.

(الهاء)؛ فقد نجا نوحٌ وأصحابه في وقتٍ واحدٍ معًا بدليلِ النّصوصِ القرآنيةِ الأخرى وروايات التاريخ القاطع؛ فلا ترتيب ولا مهلة[1]، ورأي من يقول: إنّ الواو في ﴿وَأَصۡحَٰبَ﴾ هي واو المعيّة أو المصاحبة يؤيّد هذا، ثم إنه كان يُمكن أنْ يُكتفَى بقوله ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾، وإنجاؤه يتضمّن إنجاءَ المؤمنين معه، ولكنّه أطنبَ بعطفِ أصحابِ السّفينة عليه بعد ذكرِ الطوفان الّذي أخذَ قومَهم المُصرّين على ظلمهم؛ تشريفٌ بذكر المؤمنين، وتسليةٌ لكلّ مؤمنٍ يتّبع أنبياءَ الله وأولياءَه في هذه الحياة.

اشتراكُ أصحاب السّفينة في الإنجاءِ مع نوحٍ تشريفٌ لهم وتسليةٌ لكلّ مؤمن

كما إنّه كان يمكنُ أنْ يأتي البيان الإلهي: (فأنجينا أصحاب السّفينة) ليشملَ نوحًا ومن ركبَ معه؛ ولكنّه آثَرَ هذا التّركيب؛ وهو ذكرُ نوحٍ عليه السلام وعَطْفُ مَنْ ركب في السّفينة عليه؛ للدّلالة على مكانته في العطف عليه، وللإشارة إلى مكانتهم وامتداحهم باشتراكهم بهذا العطف بالإيمان بالله تعالى.

سِرّ التّعبير بلفظ الأصحاب:

في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ عبّر البيانُ الحكيمُ بلفظِ ﴿وَأَصۡحَٰبَ﴾ الّذي يدلّ على الملازمة والمرافقة والاقترانِ وطولِ اللُّبْث[2] تناسبًا مع السّياق الّذي ذُكر فيه الإغراقُ والإنجاء، وللإشارةِ إلى طول مُكثهم في السّفينة، وأنّ عمليّةَ الطّوفان الّذي عمّ الكرة الأرضية كلَّها أخذتْ وقتًا، وأنّهم بَقوا فيها زمنًا إلى أنْ توقّفتِ السّماءُ عن الإمطار، وابتلعتِ الأرضُ الماءَ، واستوتِ السّفينة على الجوديّ.

فـي وصفهم بـأصحاب السّفينة إشارةٌ إلى طولِ مُكثِهم فيها

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾:

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بلفظِ السّفينة في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبَ

(1) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 3/ 560.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صحب).

شـقَّ المـاءِ شقًّا وقَـشْـرُه قَـشْـرًا سَـفْـنٌ يتناسبُ مـع الـطّـوفـان العظيم والنّجاةِ منه

ٱلسَّفِينَةِ﴾ دون غيرها كالفُلك مثلًا؛ لكونِ اسم السّفينة هو الأصلُ والأشهر، ولكونِ لفظِ السّفينة أنسبَ للسّياقِ الّذي يتحدّثُ عن الإغراقِ بالطّوفانِ - الّذي يدلُّ على الكثرةِ المتناهيةِ من الماء -، وعن الإنجاءِ منه؛ فالسّفينة تدلّ في مادتها على تنحيةِ شيءٍ عن وجهِ شيء، كالقِشْر، وقد سُمّيت بذلك؛ لأنّها تَسْفِنُ الماء كأنّها تَقْشِرُه قشرًا، أي تغوصُ فيه وتزيحه حين جَرْيِها[1]، فعندما عمّ الطّوفان المعمورة ذكر اللّه السّفينة الّتي تشقُّ الماءَ شقًّا وتطفو عليه، بما يحقّقُ لهم النّجاة بها، بخلاف لفظِ (الفُلك) الّذي تدلُّ مادتُه على الاستدارة، وسُمّي بذلك لأنّه يُدار في البحر[2]، كما أنّ لفظ السّفينة يتناسبُ مع قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، فالسّفينة في أصلها وجنسها هي آيةٌ للعالمين.

معنى (أل) التعريف ودلالتُها في قوله: ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾:

إنـجـاءُ اللـهِ لأصـحـابِ الـسّـفـيـنـة المعهودة الّتي صنعها نـوحٌ وحـمـل عليها المؤمنين

(أل) التّعريف في ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾ للعهد الذّهني، لأنّها معهودةٌ معروفةٌ، فهي الّتي أُمِرَ نوحٌ بصنعِها، في قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: 37]، وهي الّتي كانت سببَ نجاةِ نوحٍ والمؤمنين معه، وقد جعلها اللّه سبحانه آيةً للعالمين، فقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: 15].

سِرُّ الإضافةِ في ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾:

الّـذيـن حملهم نوحٌ في السّفينة هم أصحابُها

إضافة ﴿وَأَصْحَٰبَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ إضافةُ تعريفٍ وتشريف لهم، فهُمُ الّذين حملهم نوحٌ عليه السلام في السّفينة[3]، وقد بيّنهم القرآنُ في غير هذه الآية في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فلك).
(3) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 11/ 490.

40][1]، وقد اسْتُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ ساكنَ الدّارِ يُدعَى (صاحِبَها)، وإنْ لم تكُنْ له مِلكًا[2].

توجيه المتشابِهِ اللّفظيِّ:

من بلاغةِ القرآن مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقه

في آية العنكبوت: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ عبرّ القرآن الكريم بفعل (أنجينا) متعدّيًا بالهمزة، وبلفظ السّفينة، بينما في سورة يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: 73][3] فقد عبّر بفعل (نجّينا) بتشديد الجيم، وتوجيهُ ذلك: أنّ (أنجينا) و(نجّينا) للتّعدّي، لكنَّ التّشديدَ يدلّ على الكثرة والمبالغة، فكان في يونس ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [يونس: 73]، ولفظ (مَنْ) يقعُ على أكثرَ ممّا يقع عليه ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، فـ(مَنْ) يَصْلُحُ للواحد والتّثنية والجمع والمذكّر والمؤنّث، بخلاف (أصْحابَ السّفينة) فإنّه للجمع؛ فكان التّشديد مع (مَن) أليقَ[4]، وكذلك لفظ (أنجينا) فيه زيادةُ الهمزةِ فناسبَ مجيئُه مع لفظ ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، وأمّا (نجيّنا) فإنّه أقصرُ فجاء مع لفظ ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [يونس: 73] وهو أقصرُ من قوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾.

بلاغةُ العطف في قوله ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً﴾:

غايةُ الإنجاء جَعْلُ السّفينة آيةً وعبرةً للعالمين

جملة ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وتكمنُ بلاغةُ العطف في كونِ الجملةِ المعطوفة تتمّةً للجملة المعطوف عليها، فهي من تتمّةِ قصّةِ نوحٍ عليه السلام، وهي بمثابة الغاية من الإنجاء، أي: جَعلُ السّفينة الّتي أنجاها اللّهُ تعالى بمن فيها آيةً وعبرةً للعالمين.

---

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 164.

(2) ابن الفرس الأندلسيّ، أحكام القرآن: 3/ 410.

(3) وقد ورد (أنجينا) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: 64]، وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشّعراء: 119]، وورد (نجّينا) في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: 76].

(4) الكَرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 122.

نكتة التّعبير بالجَعْل دون غيره:

الجَعْلُ لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلّها ويتناسبُ مع عمومِ المفعول

عَبّرَ النّظمُ الحكيمُ بلفظِ ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ دون غيره؛ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ مِنْ (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائرِ أخواتهما، وهذا يتناسبُ مع ضميرِ المفعول في الفعل ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ الّذي قد يكون السّفينة المعهودةَ أو جِنْسَ السّفن أو القصّةَ أو الحادثةَ أو الإغراقَ أو الإنجاءَ، كما أنَّ الجَعْلَ لغةً فيه معنى التّهيئةِ والتّضمينِ والتّبعيةِ، وإحداثِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه[1]، وهذا يتناسبُ مع المقام فهذه القصّة أو الحادثة أو السّفينة أحدَثَ اللّهُ منْها العبرةَ للعالمين.

سِرّ إسناد ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ إلى ضمير التّعظيم:

جَعْلٌ مفخّمٌ تبشيرًا للنّبيّ ﷺ بمعجزةٍ شاهدةٍ لهُ بصدقِ ما جاءَ بهِ

أسندَ سبحانه فعل (جَعَلَ) إلى ضميرِ التّعظيمِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ مناسَبَةً للسّياقِ الّذي هو سياقُ بيانٍ لعظمةِ اللّه تعالى في إرسالِه الرُّسلَ، وأخذِه الظّالمين المتكبّرين المتعالين بالطّوفان الّذي عمّ المعمورة كلَّها، ثمّ في إنجاءِ نوحٍ عليه السلام ومَنْ ركب معه في سفينةٍ ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ [القمر: 13] ﴿تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: 42]، وتعظيمًا وتفخيمًا لهذا الحدثِ العجيب، ولجَعْلِه عبرةً باقيةً للعالمين، فهو جَعْلٌ مؤكَّدٌ بعظمةِ اللّه سبحانه وفي هذا التّفخيم تبشيرٌ للنّبيّ ﷺ بمعجزةٍ ستبقى شاهدةً لهُ بصدْقِ ما جاءَ بهِ إلى أنْ تقومَ السّاعة، كما أنّ في الإضافة لضميرِ التّعظيمِ تربيةَ المهابة تجاهَ المَلِكِ الأعظمِ القادرِ على كلِّ شيءٍ سبحانَه.

دلالةُ مرجع الضّمير (ها) في ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾:

الضّمير (ها) في ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعودُ إلى السّفينة

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).

بيان الاهتمام بما جعله الله آيةً وموعظةً للمكذّبين وحجّةً للمؤمنين

المعهودة[1]، أيْ: إنّه سبحانه جعلَ السّفينة دليلًا على وقوعِ الطّوفان عذابًا من اللّهِ لمن كذّبَ الرّسلَ، فكانتِ السّفينة آيةً ماثلةً في عصورِ جميعِ الأمم الّذين جاءتهم الرّسُلُ بعد نوحٍ موعظةً للمكذّبين وحجّةً للمؤمنين، وقد أبقى اللّهُ بقيّةَ السّفينة إلى صدرِ الأمّة الإسلامية[2]، ويحتملُ أنْ يكون عائدًا إلى جِنْسِ السّفينة[3]، من بابِ التّدريجِ مِنَ الشّخْصِ إلى الجِنْسِ[4]، أي: وجعلنا جِنْس السّفينة آيةً للعالمين، أي: علامةً على قدرةِ اللّه وعلمه؛ يعتبرون بها رحمةَ ربّهم، فقد قيّضَ لهم أسبابَها، ويَسَّر لهم أمرَها، وجعلَها تحملُهم وتحملُ متاعَهم[5]، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: 41 - 44].

ويحتمل أنْ يكونَ عائدًا إلى الحادثة أو القصّة[6]، والمعنى: وجعلْنا حادثةَ إغراقِ قومِ نوحٍ وإنجائه ومن معه من المؤمنين، أي: جعلنا عقوبتَنا إيّاهم آيةً للعالمين[7]، أو جعلنا القصّةَ آيةً للعالمين[8].

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿ءَايَةً﴾:

إنجاءُ السّفينة علامةٌ ظاهرةٌ ومعجزةٌ وعبرةٌ للعالمين

عبّر البيانُ الإلهيّ بلفظ ﴿ءَايَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ دون غيرها من الألفاظ كالعلامة مثلًا؛ لاتّساعِ دلالة لفظِ الآية، فهي تشملُ معنى العلامة والمعجزة والعبرة، والجزء المحدود

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 222.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 405.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 268.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 37، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 223.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 18.
(8) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 22.

من القرآن[1]، كما أنّ الآيةَ أبلغُ؛ فهي العلامة الظّاهرة[2]، وهذا يتناسبُ مع كون إنجاءِ اللّه لأصحابِ السّفينة علامةً ظاهرةً ودلالةً واضحةً على صدقِ قولِ الأنبياء، ونجاةِ مَن آمن بهم وهلاكِ مَن كذَّبهم[3]، وهي كذلك معجزةٌ وعبرةٌ لكلّ الأمم بعد نوحٍ ﷺ وليستْ مجرّدَ علامةٍ يُسْتَدَلُّ بها.

عِلَّة عدمِ وَصْفِ الآيةِ هنا بالبيّنة:

الإنجاءُ بالسّفينة أمرٌ يقبَلُه كلُّ عَقْلٍ فلا يحتاجُ إلى تأكيد

لم يَصِفِ اللّهُ سبحانه (الآية) في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بالبيّنة أي: لم يقل: (وجعلناها آيةً بيّنةً للعالمين) بخلاف قوله في قصّة إهلاك قوم لوط: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: 35]؛ مراعاةً للمقام؛ فالإنجاءُ بالسّفينة أمرٌ يقبله كلّ عقل، وقد يقعُ في ذهنِ جاهلٍ أنّ الإنجاءَ لا يفتقرُ إلى أمرٍ آخرَ، فإنجاءُ السُّفنِ أمْرٌ مَعهودٌ؛ ولهذا لا حاجة إلى تأكيد الآيةِ بأنها بيّنة، وأما الخَسْفُ، وجَعْلُ ديارِ قومِ لوطٍ ﷺ المعمورةِ عاليَها سافِلَها، فهو ليس بأمرٍ مُعتاد، وإنّما ذلك بإرادةِ قادرٍ، فأتى تأكيدُها بالبيّنة، إذ لا يمكنُ لجاهلٍ أنْ يقولَ: هذا أمرٌ يكون كذلك في العادة[4].

سِرّ إفرادِ لفظ ﴿ءَايَةً﴾:

إرادة استغراق جنس الآية الّذي يصلح للقليل والكثير

أفردَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ءَايَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: (آيات)؛ إمّا لإرادة الجنس، وهو صالحٌ للقليل والكثير، أو مراعاةً للإفراد في لفظ السّفينة - على قول مَنْ أعادَ الضّميرَ إلى السّفينة - ؛ فالآيةُ إنجاؤُه تعالى أصحابَ السّفينة وقْتَ الحاجة[5].

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأَعْيُنِ النَّواظِر، ص: 154 - 155.
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (أيي).
(3) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 11/ 490.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 15/ 351، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.

الغرض من تنكير لفظ ﴿ءَايَةً﴾:

إفادةُ معنى التّفخيمِ والتّعظيمِ للحدث الكبير

نَكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿ءَايَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ في سياقِ بيانٍ عظيمٍ قدرتِه سبحانه في الإغراقِ والإنجاءِ؛ لإفادةِ معنى التّفخيمِ والتّعظيمِ لهذهِ السّفينة الّتي ما زالتْ إلى الآن وستبقى آيةً عظيمةً تدلُّ على قدرةِ الله تعالى أو لإفادةِ معنى التّفخيمِ لهذه الحادثةِ العظيمةِ وما تضمّنته من إغراقٍ عظيمٍ للمعمورة، وإنجاءٍ عظيمٍ للمؤمنين في سفينةٍ عظيمةٍ تجري في أمواجٍ كالجبال برعايةِ اللّه وحفظه، كما أنّ تعظيمَ الآية بالتّنكير يتناسبُ مع عموم كونِها للعالمين، وليسَتْ فقط لأهلِ ذلك الزّمان.

سِرّ اختيار التّعبير بلفظ (العالمين):

وجود مثال للسّفينة عند كل أمم العالم مما يذكّرهم بقصّة قوم نوح لتكون لهم عبرةً

آثرَ النّظمُ الحكيم لفظ (العالمين) في قوله تعالى: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ دون لفظ العاقلين أو (قوم يعقلون) كما في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: 35] في آية إهلاك قوم لوط بالخسْف؛ لأنَّ السّفينة موجودةٌ معلومةٌ في جميع أقطار العالم سواءٌ بعينها أو بجنسها؛ فعند كلّ قوم مثالُ السّفينة يتذكّرون بها حالَ نوحٍ ﷺ وإذا ركبوها يطلبون من اللّهِ النّجاةَ، فلا يثقُ أحدٌ بمجرّد ركوب السّفينة، بل يكون دائمًا مرتجفَ القلبِ متضرّعًا إلى الله طالبًا النّجاة، وأمّا آثارُ الهلاك في بلاد لوط فهو في موضعٍ مخصوصٍ لا يطّلعُ عليها إلا من يمرّ بها، ويصل إليها، ويكون له عقل يعلمُ أنَّ ذلك من الله[1].

كما أنّ التّعبير بالعالمين دون لفظ النّاس؛ لأنّ في العالمين معنى الوصفيّة الدّالة على العلم، ولأنّ فيه تغليبًا للعقلاء على غيرهم[2]؛ تعريضًا بالكافرين الّذين عطّلوا عقولهم، ولم يعتبروا بهذه الآية العظيمة وعبدوا أصنامًا لا تعقلُ، كما أنّ لفظ العالمين

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 15/ 351.
(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 1/ 28.

– وهو صيغة جمع – يتناسبُ مع السّياقِ الّذي يُبرزُ عظمةَ اللّه في الإهلاك والإنجاء.

دلالة (أل) في ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

(أل) في قوله تعالى ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ دالّة على استغراق الجنس، المفيد للعموم، ليشملَ كلّ العالمين؛ لأنَّها بَقيَت أعوامًا حتَّى مرَّ عليها النّاسُ ورأَوها، فحصَلَ العِلْمُ بها لهم[1]، ولأنَّ مَن لمْ يُشاهِدْ بَقايا سفينةِ نوحٍ فإنَّه يُشاهِدُ السُّفنَ، فيَتذكَّرُ سَفينةَ نوحٍ وكيف كان صُنْعُها بوَحْيٍ مِن اللّهِ لإنْجاءِ نوحٍ ومَن شاء اللّهُ نَجاتَه، ولأنَّ الّذين مِن أهْلِ ذاك المكان الّذي هي فيه يُخبِرون عنها، وتُنقَلُ أخبارُهم، فتَصيرُ مُتواتِرةً[2].

استغراق جنس العالمين سواءٌ من رأى سفينة نوحٍ أو رأى أيّ سفينةٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأصحاب والأهل:

الأهلُ أخصُّ من الأصحاب؛ إذ أهلُ الرّجل: مَنْ يجمعه وإيّاهم مسكنٌ واحد، وأهلُ الرّجلِ: زوجُهُ، وأخصُّ الناسِ به[3]، وقيل: أَهْلُ الرَّجُلِ: عَشيرَتُه وذَوو قُرباه[4]، والأَهْل في عُموم التّعارف الأقاربُ مِنَ الْعَصَبَة ومن ذَوي الْأَرْحام؛ لِأَنَّهُ يجمعهُمْ النّسَب والتّناصر[5]، بينما الصّاحِبُ هو المُعاشِر[6] والملازِم إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، ولا فرقَ بين أنْ تكون مُصاحَبَتُهُ بالبدن – وهو الأصلُ والأكثر – أو بالعناية والهمّة[7]، ولمّا كان أهمُّ ما يتميّز به الصّاحبُ هو الملازمةُ وطولُ اللُّبْثِ ناسبَ التّعبيرَ به في الآية؛ وذلك

الصّحبة ملازمةٌ ومعاشرة، والأُهولة خصوصيَّةٌ في الزّواج والقرابة والعشيرة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 222.
(3) ابن فارس، مقاييس، والرّاغب، المفردات: (أهل).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أهل).
(5) ابن الجوزيّ، نزعة الأعين، ص: 163.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صحب).
(7) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (صحب).

لكون أصحابِ السّفينة لازموها فترةً من الزّمن وهم على ظهرها إلى أنْ رَسَتْ وأنجاهم اللّهُ من الغرق.

السّفينة والفُلْك:

السّفينة تَسْفِنُ الماءَ كأنّها تَقْشِرُه، والفُلْكُ تَفْلِكُ كأنّها تَستديرُ وتُدارُ في عُرضِ البحر

اسم السّفينة هو الأصل؛ إذ يُعرَّف الفُلْكُ بالسّفينة[1]، فهي تدلّ في أصل مادتها على تنحيةِ شيءٍ عن وجهِ شيء، كالقَشْر، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها تَسْفِنُ الماءَ كأنّها تَقْشِرُه، أي: تغوصُ فيه وتُزيحهُ حين جَرْيِها، أو لأنّها خشبٌ نُحِتَ وصُنِعَ[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أصلها الّذي صُنعت منه، بينما الفُلْكُ سُمّيت بذلك لاستدارتها، ولأنّها تُدارُ في البحر[3]، والفَلَكُ: موجُ البحر المُضْطَرِب المُستَديرُ المُتَرَدِّدُ[4]، وقد ناسبَ هنا استعمال السّفينة دون الفُلْك؛ لأنّ قصّة نوح عليه السلام جاءت هنا عامّة مجملةً، وليست مفصَّلة كما هي في مواضعَ أخرى، فناسبَ استعمال السّفينة لأنّها الأصل، كما أنّ السّياق عن الإغراقِ بالطّوفانِ وعن إرساءِ السّفينة وإنجاءِ اللّه لأصحابها من الغرق، لا للتّعبير عن استدارتها في البحر، فأتى التّعبير بالسّفينة الّتي تشقُّ الماءَ شقًّا وتطفو عليه، إلى أنْ رسَتْ على الجبلِ وتحقّقَت لهم النّجاة.

العالمون والنّاس:

العالمون أعمُّ من النّاس واشتقاقه من العلم فالسّفينة رأوها وحصلَ العلم لهم بها

لفظُ العالمين أعمُّ من لفظ النّاس؛ إذ يشملُ كلّ العوالم لا عالَمَ الإنس فقط؛ فيقعُ على عالَمِ الملائكة والإنس والجنّ، واشتقاقه من العِلْم؛ لأنّه يقعُ على مَنْ يعلم، ويَصْلُحُ أنْ يكونَ من العلامة؛ لأنّ فيهم دلائلَ على خالقهم، وقد ورد في الاستعمالِ القرآنيِّ على أربعة معانٍ، **الأوّل:** الملائكة والجنّ والإنس، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، **والثّاني:** الجنّ والإنس خاصّة؛ قال تعالى:

(1) الخليل، العين، وابن سِيْدَهْ، المحكم: (فلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فلك).
(4) الزَّبِيديّ، تاج العروس: (فلك).

﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: 1]، والثّالث: كما في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الجاثية: 16] يعني: عالم زمانهم، والرّابع: الناس من لدن آدم ﷺ إلى يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ [آل عمران: 42][1]، بينما النّاسُ خاصٌّ بجنسِ الإنس، وهو جمعُ (إنسان) من غير لفظِه، ومشتقٌّ من الأُنس، أي: ضدّ الوحشة، أو من النّسيان، أو من النَّوْس وهو الحركة[2]، وقد ناسب هنا التّعبير بالعالمين للعموم؛ ولملاحظة صفة العلم؛ فالسّفينة بقيتْ أعوامًا حتى مرّ عليها النّاس ورأوْها، فحصل العلم بها لهم[3].

(1) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 335.
(2) الزَّبِيديّ، تاج العروس: (أنس).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»